قصة لبنانية جديدة

قلم عطر

بقلم الاستاذ أحمد عويدات*

ليس من احد بين الحضور الا وكان يود ان يعرف ما يدور في رأس هذا الشاب وقد مال متكئاً على كرسيه في البهو ، واستمر اثناء ذاك يعتمد رجلا على رجل او يرمي بكتفيه الى حافة الاريكة ، ينفث دخان اللفافة تائه النظرات حاضراً وليس كالحاضر ، يسمع ولا يفقه شيئاً من الحديث الذي يخوض فيه القوم . ود أي منهم لو نفذ الى طوية فكره وهو يضع فنجان القهوة على المنضدة بعد ان اتى على حثالته . وحاول بعضهم بالفعل ان يبحث معه شأناً من الشؤون فلم يظفر بأكثر من اماءة برأسه ولفتة مقتضبة ثم تنسحب عيناه لتحوم على باب الغرفة التي تتصل بالبهو . لا بد ان شيئاً لفت انتباهه او طيفاً غاب عنه ، هل كان يفكر بشيء ؟

وهي ، هي الاخرى ، ما الذي طرأ عليها ، وما هذه الرعشة التي تجاوبت في كيانها واستشعرت من ورائها بلون من اللذة والبهجة لم تدرك مداه ! ليس لها عهد بمثلها لذة تنساب في دخيلتها فهي فرحة ولكن يمازجها قلق ، وطروب ولكن في غير يقين ، أتعرف سبباً لفرحتها وطربها !

انك لو سألته بم يفكر لما عرف كيف يجيب . انه يفكر ولكن ... بكل شيء . ولو سألتها لما كان لها ان تجيب بأكثر من هذه النشوة الحائرة التي شاعت في وجهها .

وانها لحديثة عهد بهذا الشعور الملذ ، فهي لم تكن من قبل لتنطلق مع سجيتها بل كانت تسير في حياتها على منهج لا التواء فيه ولا تعقيد . وكان يبدو انها راضية قانعة . فهي ما تزال طالبة تتابع دروسها ، تخرج مع الصباح وتعود مع غروب الشمس ، وفي ايام الاعياد تلزم البيت لتقوم بقسط وافر من العناية بشؤون المنزل وشؤون غرفتها بنوع خاص . واذا لم تجد شيئاً تنصرف اليه من شأن المنزل تتناول كتاباً تقرأه او مجلة تتصفحها . وقد تفر فجأة الى مكتبها لتسجل فكرة عبرت في ذهنها تضيفها لحة للموضوع الادبي الذي تعده كل اسبوع .

كانت تعيش في جو المدرسة وجو البيت ولا تخرج عليها . فهي في المدرسة منصرفة الى دروسها وفي البيت تواصل ما انقطع منها . ولعلها ارتضت بهذا الوضع خطوة اولى نحو هدف بعيد باتت تتبين منه خطوطاً بيضاء زاهية اودعتها من الاحلام والآمال ما يحملها على الصبر والانتظار .

فلا بأس اذن من الدرس ولا بأس من الاجتهاد وانها لتسير الى مستقبلها بخطى اراد اهلها ان تكون رزينة وقوية ولم تشأ ان تثور في وجههم ، بل اقبلت مغتبطة تغترف من العلم في الوقت الذي انقطعت فيه رفيقاتها عن المدرسة ولم يحصلن منها على شيء يذكر .

فكانت تشعر لذلك بان مصيرها غير مصيرهن وان ما ينتظرها من آمال هو اوفر حظاً واعلى منالا مما اصاب غيرها من بنات الجيل .

كانت تسير في هذا السبيل ولم يبق امامها الا امتحان نهائي لتتخرج من دار المعلمات في بيروت .

وداخلتها حيرة ولذة ذلك اليوم حين لمحت من خصاص الباب الذي يطل على البهو وجهاً سبق لها انها رأته من قبل ، ولكن لمن يكون ؟

انها لا تعرفه ولكن شيئاً تحس به غامضاً وتجهل امره يحملها على الاعتقاد بان وجهه ليس غريبا عنها . ولم تحاول ان تسأل من يكون ، وما شأنها به . ثم من تسأل ! انها لم تجرب مرة ان تكشف الحجاب عن دخيلتها حين كانت بينها وبين نفسها تتصور نظرات اهلها فيما لو فعلت . فتلتزم الصمت وتكبت ما في نفسها من فضول وهي تسمع اسم فلان وفلان

(*) يباشر الاستاذ عويدات بطبع مجموعته القصصية في دار الادب ببيروت باسم « شروق » وقد تفضل فارسل الينا (قلم عطر) منتزعة من مجموعته خصيصاً لهذا العدد القصصي .
التحرير

ولكنها الآن وحدها ، فقد ذهبت امها لزيارة احدى ذوات قرباها ، وكانت فرصة اتاحت لها ان تزيح عن صدرها ثقل هذه المراسيم وتنطلق مع انوثتها ، فتتساءل بالحاح : هذا الوجه ، من يكون صاحبه ! فهي تكاد تجزم بأنها تعرف شيئا عنه ، انه ليس من بيروت ، ثم هي تذكر انها رأت هـذا الوجه في (شميم) ايام اشهر الصيف ، واذن فهو من بلدهـا وان كانت لا تعرف بالضبط اسم الحي الذي يسكنه .

وكأن ضوءاً تسلل الى ذاكرتها فداخلها ارتياح وقد رأت ما تنم عليه نظارات هـذا الشاب الجالس قبالة الباب . وحرصت بدافع هذا الفضول المذب ان تسأل نفسها .

ـ هذا الفتى ، ترى هل كنت اسمع باسمه وشخصه لا يزال مجهولا عني ! هناك اسماء كثيرة تتردد على مسمعي ولكنني اجهلها .

وراحت تستعرض في مخيلتها ما تعرف من نتف واخبار عن هذا وذاك من شباب (شميم) الذين نزحوا الى بيروت في طلب العلم ، ولعل اهتمام اسرتها بهذا النفر المتفتح من الشباب هي التي جعلت الآنسة ناهد ، ابنة الطبقة الارستقراطيـة ، تقف على الكثير من اخبارهم . فهـذا درويش . اقام اهله ما يشبه العرس حين نجح في شهادة البكالوريا ، وسعيد . . كان يتقبل التهاني مشفوعة بتشهير ابن اخيه كأن يهنئه احدهم بنجاح ابن اخيه فيجيب : الفرح غير كامل ، فينعطف السائل مندهشاً : لماذا ـ فيقول له : لأن ابن عمه سقط .!!

ونسيب .. قطع اهله كل رجاء بعد ما تبين انه طلق المدرسة وانطلق يلهو ويرود اماكن مشبوهة ، ونادر .. عين شرطياً بعد ان سعى ابوه المختار من اجله لدى فلان وفلان . وبهاء . ما يزال يتابع دراساته الجامعية و . . الخ فكانت تجرب ان تلبس هـذا الشخص صورة من هـذه الصور الكثيرة التي علقت بذاكرتها .

وانصتت الى ما يدور في البهو من حديث وهي تختلس النظرة من طرف الباب الذي لم يحكم جيداً اغلاقه ، وكأن عينيها الملتهبتين تجمع في حدقتيها كل رغباتها وامانيها ، واذا بصوته وهو يتحدث مع ابيها يمر الى اذنها فيحملها الى واحة وارفة الظلال . أتكون لهجته تلك هي التي كان لها فعل السحر في نفسها ام لما سمعته باذنها من انه يدرس الحقوق هو الذي لمس خلجاتها فداخلها هذا الخدر اللذيذ . ام ان شفتيه حين تلمظت القهوة ، وهي التي اعدتها بيديها ، تطاير منها ترياق عجيب !

لم تعد تخامرها فكرة واضحة الا انها ارتضت ان يكون هذا الشاب امير احلامها .

وبدا ذلك لعيني الشاب فراودته خيالات عديدة تبلورت في فكره تكاد تكون راسخة وأي ضير في ذلك . انه شاب وهي شابة وهو عما قليل يحمل الليسانس وهي عما قليل تغدو استاذة فهو مثقف وهي ايضا مثقفة ، وهو من شميم وهي من بلده نفسها وان لم تكن تزورها الا لماما . وغمره الزهو وأي زهو ، ورقت حساسيته وانتشى برعشة مسكرة تشبه الذهول تجاوبت في نفسه وهو مسمر الى كرسيه . لقد فرش مستقبله باوراق الورد ولم يجرب مرة ان يتحسس الابر الدقيقة التي يحملها الورد وليس أيسر على الشاب من ان يخطو بفكره الى بعيد يغرس احلامه ويعنى بغرامه .

مضى اسبوع على هذه الزيارة وذلك الطيف يرود مخيلته لا يتوارى الا ليبرق كالنور . وكأن الفتى افاق الى نفسه فاخذ يعمل ذهنه الى ان استقر اخيرا على امر رآه افضل السبيل وايسره للتقرب منها . فراح يعكف الساعات الطويلة على كتبه وخيال ناهد لا يزايله عند كل سطر كمسبار يقع من لج نفسه الى ابعد الغايات .

وتعاهـد الاثنان وكل منهما يطل على الآخر من كوة ذاته . فغدا الشاب يتردد الفينة بعد الفينة متعللا بزيارة اهلها يرافقه شخص آخر تصله بهم مودة وقربى . وما آل الفصل الاخير من السنة المدرسية على التصرم حتى كان يتنفس الصعداء وكأن كابوساً انزاح عن كاهله . فهو الآن حر طليق يتنفس ملء رئتيه قادر على مواجهة الحياة بزهو واعجاب ، ثم لم يلبث حتى حزم امتعته واتجه قاصدا بلده .

هبط على ذويه وكان قد سبقه نبأ نجاحه اليهم فغمرهم فيض من الفرح وانتشر الخبر في احياء البلدة وبات اسمه يتردد على كل لسان . النساء على العين بانتظار الدور لملء جرارهن

تلفظن باسمه وتبادل بعضهن نظرات وهمسات ، من تكون عروسه . وهل يظن انه يرضاها من هذا الوسط تحمل الجرة الى العين وتغدو الى الحقول مع الفجر تجمع الحطب وتحمل السلة على رأسها في موسم الزيتون .

وحبست كل منهن حسرة في نفسها ضائقة متبرمة بهذا الاسلوب من العيش الذي درجن عليه . والرجال والشباب اثناء جلوسهم على المقاعد الخشبية في الدكاكين وعلى الافاريز قد اعتادوا ايضا مطارحة الاخبار في كل شيء وان اخبار بيروت اول ما تصل الى هذه الساحة حيث يحوم القوم حول البوسطة كل مساء . ولا بد ان بينهم من فرح وبينهم من تظاهر بالفرح .

وفي غمرة البهجة والتهاني التي قوبل بها كان الفتى بهاء يتشوف الى شيء آخر . كان يحرص كغيره على ان يستقبل البوسطة كل يوم عند الغروب ، وهي تنقل اخبار بيروت ، ولكن لشيء لا يعلمه احد . انه يفتش عنها في وجوه الركاب ولا بد انها قادمة بين يوم وآخر . وكان اذا اشتد به الشوق يحمل بعض اصحابه على مرافقته في نزهة خارج البلد منتظراً قدوم البوسطة وهي تنثر وراءها الغبار الكثيف .

ذات مساء اقبلت البوسطة وكأنها تترنح من التعب ووقف بها وعلى صخرة بجانب الطريق يرقبها بانتباه ، وما حاذته وهي تطوي (الكوع) وتتمهل في سيرها حتى خفق قلبه .

ليس يدري ، لم لوح بيده في الهواء ، هل املت منه الامر فرفع يده يحييها ام انه قصد السائق والاثنان صف واحد على مقعد ! انك لو كنت مكانه لما اطلت التفكير لادراك هذه الغيرة التي لمسته وهو يرى السائق منبسط المحيا ضاحك الثغر يرد اليه التحية . والحق لقد كان كل همـه ان يرحب بقدوم ناهد فلوح بيده . وكأنها ادركت ما يقصد فلم تبخل عليه بابتسامة من شفتيها غابت وراء نظاراتها السوداء .

صبيحة اليوم الثاني كان بهاء ينشد ذلك الصديق الذي تصله بها صلة القربى ، وكان لبقاً في اظهار محبته اياه واعزازه له . وقد استطاع بمهارته ان يتقرب من ناهد التي اسكرته بعبق سحرها وتوالى غشيانه منزل اهلها واصبح يجد من المقدرة ما يرضي انوثتها في حديث جذاب او نكتة بارعة يجيد عرضها .

وارتاحت الفتاة الى منطقه . وكانت كثيراً ما تشخص اليه كأنها تنتظر منه ان يبوح لها بما يختزنه في صدره وكأنه ادرك ذلك . وكان كثيراً ما تتاح له مناسبات يجلس معها فلا يمسك نفسه اعجابا بها وهي تتهادى بشعرها المرسل الجميل وصدرها الناضج الثمار وقامتها الممتلئة في غير استرخاء او ترهل .

وطال تردده عليها . لقد اضحت تشغل جزءاً كبيرا من وجوده واخذت نفسه تنطلق عبر عوالم جديدة . فهو ان تمدد في عرزاله ساعة القيلولة تمنى لو تكون بقربه تنشد على اوتار نفسه نشيد الكون ، وان وقف مرة امام مرآته يرتدي قميصه تمنى لو ان يدها تلمسه ، وان ضاقت به المراسيم الاجتماعية تمنى لو يأخذها بين يديه ويغيب بها في الحقول كما حمل (الفرد دوفيني حبيبته ايفا)

وتنزع به حالات اخرى من الحيرة والقلق . فهو يذكر جيداً تلك الازمة العنيفة التي هزت نفسه حين دغدغت اصابعه نهديها وافاق من حلمه على صوتها وهي تعاتبه :

— استح ! عيب يا بهاء !

ويذكر جيدا يوم انصرف نفر من رفاقه ينصبون الشبكة في الساحة يتبارون في الكرة الطائرة ، وكيف كان رفاقه يهابون جانبه حين يلطم الكرة بيده فتنصب عليهم صاعقـة . وانه لذاكر ايضا يوم كان شباب القرية في الحوانيت يصفقون للاعبين وداخلته الحماسة ذات مرة فلطم الكرة لطمة طرقت احدهم ارضاً اتصلت بعاصف من تصفيق .

ثم ما سعى اليه الساعون وما بثه الوشاة من اقاويل . فقد انموا اليها ان صاحبنا يتردد على فتاة في الحي الآخر يمضي اليها بعض الوقت في مزاح ومداعبة . وما كان بهاء بوسعه ان ينكر ما اشيع عنه .

والحق لم تخرج ناهد عن كونها انثى تأصلت فيها طباع المرأة وبقدر ما كانت تكبت في نفسها الحب العنيف شدهت حين ترامى اليها امر الفتاة الثانية وساورتها اشتات الظنون . والمرأة في هذا المحيط لا تستطيع اكثر من ان تكبت عاطفتها الى حد الاختناق .

وصبرت ولكن على مضض ، فهي تدرك ان قلبها لم يعد في

متناولطاقتها . ولكنها الحرقة اخذت تستعر في كيانها فتنهدت وطفقت تتحين رؤيته بعد ان غاب عنها اسبوعا قيل لها خلاله انه في بيروت .

اما هو فلم يكن باستطاعته ان يتقي ما اشيع عنه . فهو يذكر انه جالس فتاة ثانية . وقد يكون انس الى ناحية مامن طبيعتها . والمرء تكتنفه تناقضات واسرار كثيرة تبعاً للملابسات التي ترافقه ، فقد يتمثل جسداً جميلا يقف على مواطن فتنته واغرائه ، وهو حينئذ يذهب الى ان المرأة صدر جميل همه ان يكشف كنوزه . كانه حين تضيق به يده وتحرم معدته الغذاء الجيد يبدو مثقل النفس لاينظر الى الحياة الامن زاوية بعينها هي زاوية الرغيف فيتحمل الحقد والثورة ، وتنزع به نفسه الى تحطيم هذه القوى الوهمية التي تربطه بقافلة الآدميين ، كذلك يداخله في اوقات شعور من التفاؤل لايستكنه سره وبالعكس فقد يتلبس احياناً نفسية تختلف عن تلك التي كان يحيا بها من قبل .

وكان الشاب من هؤلاء الذين لايستطيعون السير على وتيرة واحدة. ففيه روح ومادة وخير وانانية وجمال وشهوة وخيال وواقع، وكان يؤثر ان لاتعرف عنه نا هد الا الحب المثالي الذي يختصها به ، حب يصهر نفسه لتذوب قرباناً على هيكله.. وكان اكثر مايخشاه ان لاتبادله ... الهيام نفسه والنجوى التي يفيض بها معينه .

وكان صادقاً في حبه يجد لديه واحة يتفيأ وارف شمائلها وينعش انفاسه بعبيرها متخذاً من طيفها هالة نور لازوردي يشيع في جنباته نقاء واخلاص . فقد غدا مخلوقا آخر في صدره الناع وفي تفكيره امتداد يقرنه بالايثار والتضحية ؛ وحلاله وهو في بيروت ان يخص محبوبته بأثر يعبق بغرام شبابه الزاهر فتخير صنفا فاخراً من العطور اشبه بقلم صغير اتخذه رمزاً لمواطنه ، وقد عزم على ان لا يمكث لحظة في بيروت بعد الآن مادام نصفه الآخر بعيداً عنه .

انه الآن في شرفة بيته عند المساء والشمس لما تتبدد بعد وراء الافق ، يزجي الوقت بين قيام لايستقر وقعود لايكف فيطمئن الا في خطوات لاتعرف الاتزان . وبين فترة واخرى ينظر الى الساعة في معصمه ، وكان من يرقب حركته في لحظته تلك لايصعب عليه استجلاء هذا الضيق الذي يحدوه انطلاق واشيء في نفسه آثر عمداً التأخر في الذهاب اليها وانه يذكر — لوترجع به الذكرى — موقفاً شبيهاً لهذا الذي يقفه الآن من الخوف والامل والحيرة واليقين . وانك صادق كل الصدق اذا تسورت ماانتابه من خلجات نفسية عندما تقدم للامتحان اتحسسها من جديد في هذه الساعة وهي تنبعث رجراجة بهذا التفاعل الغريب .

وليس يدري كيف انبعث من اعماقه وسط هذا العراك مشهد ذلك الشاب القروي يوم العيد وهو يباهي رفاقه بقاب الارجوحة في الهواء فسقطت من جيبه قطعة حلوى « سمسم» كان قد حفظها لمحبوبته . اليس اسلوبه الآن وهو يحمل قلم العطر اشبه بذلك الشاب الذي يشاركه بهذه السذاجة !

ولم يستسلم مع تلك الذكرى مدة طويلة بل ذهب يتحسس الهدية في جيبه ويندس في الظلام .

انه لن يعدم الحيلة اذا رآه احد وتطفل عليه بسؤال ؟ فسيتخذ من ذلك الصديق حجة قاطعة ، وما ان قارب الوصول حتى خفق قلبه ، كمن يرغب ويحذر حين تناهي اليه صوت ايقن انه صوتها . وغذ طريقه اليها . واستمتع معها امام الدار بلحظات سعيدة . وقد لاتصدق اذا انا اسررت في اذنك بان كل ذرة في كيانه وكل خلجة من حساسيته كانت تفيض باللذة الماتعة . اماهي فقد نفشتها خواطر متضاربة انها لو اطلقت العنان لنفسها فانها لاترضى به بديلا ؛ وتهفو اليه بكل ميولها وهو الذي احلته في الاعماق من نفسها حتى بات مستحيلا ان يفارقها طيفه .

الا ان الاخبار التي خدشت مسامعها عنه ! اتكون مجرد وشايات لايقاع الجفاء بينهما ! اتكون اقاويل ملفقة لهدم مابنته في طوايا صدرها ! وداخلتها رجفة رهيبة لو انقطعت اسبابها به وادركت ان حياتها منوطة به وان آمالها معقودة عليه ، وان اي تفسخ سيترك على نفسها عبئاً ثقيلا باهظاً ..

ولكن هذه الوشايات لجت في نفسها حتى غدت لاتستطيع احتمال مايقال وما تسمع ، ونشطت فيها روح انانية متمردة

وتجمع في صدرها غليان هموم .. وما لحظت القلم في يده حتى اربد وجهها وعلاه تجهم ووجوم ؛ ولعله ادرك مايجول في نفسها حين قال :

— ثقي ياناهد ان اية قوة لن تحول بيني وبينك ، فانت لي ضرورة ؛ وكل ذرة من كياني تفيض شغفاً بك وكل هدف ارسمه لمستقبلي بنيته على ضوء حبنا !

وبينما كان يحلق في مثاليته ويثهاوجده كانت هي عاجزة عن اللحاق بها ومشدودة الى انق ضيق تتيس وتتارث . الم تجالس تلك الفتاة التي سمعت عنها الشيء الكثير ! وهل تضمن ان يبقى لها وحدها هي والح عليها هاجس عنيد وان لم تدر كنهه فقد احست ثقله وجعلها تقف منه موقفاً شاذاً بقسوته وجفائه ومفاجأته :

— بامكانك ان تقدمها الى التي اصطفيتها !

من المؤكد انها لم تكن تقصد شيئاً معيناً ولكنها تتوجس .

قال والابتسامة تشرق على وجهه :

— وهل سواك من اصطفيها ياناهد وانت الكل في واحد

واطرق وكأنها تخفي شيئا في نفسها ثم تطلعت اليه فالفته ينظر اليها حائراً فقالت وهي تتكلف الدهشة :

— ولكني لم اطلب منك هذا !

— حتى زجاجة صغيرة ترفضينها مني !

— ورأت نفسها امام امر واقع ؛ هل تقبل قلم العطر ! وان رفضته ! وانبعث في فكرها امر خطير ؛ فلم تعد ترى فيه الحبيب المفضل ؛ ولم يعد مرداحجامها الى الفتاة الثانية بل انها لم تعد ترى فيه الشخص الماضي الذي كانت تعقد عليه احلامها الذهبية واخذت تتمثله الخصم العنيف الذي يهدد ويتحدى . الم يصل اليها انه يقوم بحملة على الوضع الحالي في بلده وفي ذلك تهديد صارخ للمتنفذين الاجتماعيين وكانت تنظر اليهم بغير عينه ! ثم الم ينقل الى سمعها ماقاله بالضبط عند افتتاح الندوة التي اطلق عليها اسم (ندوة الشباب)

(ان ندوتكم هـذه التي تضم شباب الجيل المتوثب هي بمثابة اول اسفين يدق هذه الاوضاع البالية التي سار عليها آباؤكم واجدادكم . . .)

هو ذا بهاء نفسه، بهاء الجديد يقف امام ناهد، واذن فهو يراوغها ويضع نفسه مواضع التهم، والا لما كان له ان يثور لا ان في ثورته عذاء لطبقتها التي ساقت الناس كالاغنام .

لعل هذه الافكار مجتمعة ، طبيعة الانثى الغيور بانانيتها وهذا النشاط الذي يقوم به بهاء لرفع المستوى الفكري بين الطبقات الشعبية على ما فيه من تهديم للنظم البالية السائدة ، لعل هذه الافكار كلها هي التي جعلتها تشيح عنه بل تنفر وتدفعها الى الانكماش دفعا ، وان كانت تتوق فيما مضى الى اي تذكار ولو تافها يختصها به بهاء .

وقطع بهاء السكون فقال بصوت فيه رقة وتوسل :

— ناهد !

فنظرت اليه نظرة حائرة ولم تنبث بكلمة .

— في سكوتك مايجعلني اخجل من نفسي !

وهنا عزمت على الكلام ؛ فرمت ببصرها الى بعيد وهي تقول هامسة :

— انهم لايحبونك !

— من ؟

ونظرت اليه نظرة طويلة قالت

— الا تعرف؟

واطرق صاحبنا قليلا وراح يتمتم

— اعرف ، اعرف ذلك . . .

ثم التفت فجأة

— وانت ! .

— انا ؛ وماذا افيدك وحدي !

قالت ذلك وقد اعيتها دمعة همت على طول ما احتبستها .

— حتى انت

فاجابته بصوت هادئ رزين

— الاوفق يابهاء ان نقف عند هذا الحد !

— اكاد لا اصدق ما اسمعه منك ياناهد .

— . . . . ! !

وابث لحظة ثم استطرد يقول بتأثر .

— اذا كان اهلك لايحبونني فـلا شيء يبرر رفضك هذه الزجاجة !